

وفي المسكونة ومن حدود البركة من عذاب قال: عرشنا مع رؤسوا الله
صلى الله عليه وسلم في جنة من الجنة من الأوصياء، فأنشأنا إلى القبر وكل ما يملكه فليس
رؤسوا الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا سنوكة كل على رؤسنا العرش، وفي يوم عود
يبحث رؤسوا الأرض، فرفع رأسه، فقال: «استجروا بالله من عذاب القبر»
- مرتين أو ثلاث - ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في النطاق من الدنيا، وأما
من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء يرضون الوجوه كأنهم رؤسوا الله من الدنيا، وأما
منهم فكان من أكل الجنة، وسقط من سنوطة من سنوطة الجنة، حتى يجلسوا منه مد
البصر، ثم يحيى ذلك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: «الشرجي، أينما
النفس المطمئنة، اشرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج تسبل كما تسبل
القطرة من في السماء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يتركها في يده طرفة عين حتى
يأخذها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطرب
نفسه مسك وجدت على وجوه الأرض، فيضعونها بها، فلا يتركون بها على ملا
من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: روح فلان بن فلان،
يا حسن أسياره التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى يشهدوا به إلى السماء الدنيا،
فيستحيون له فيفتح له، فيسبغونه من كل ماء مقربها إلى السماء التي فيها،
حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: «كتبنا عبيدي في
عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم
ثارة أخرى».

قال: «فتعاد روحه إلى الأرض، فيأبى ملكان، فيجلسان، فيقولان له: من
ربك؟ فيقول: رب الله عز وجل، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام،

من غير عمل لا يبلغ الإنسان، فهذا كان بأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، لكن
لم يعمل هو بأمر الله به، فصار في النار فضيحة والعيب بالبدن، ففتنح فيها
أعداءه، وتسل على الأرض، ويدور فيها كما يدور الطير برحله، يعني: كما
يدور الطير بالرحى الذي يطحن به الحبوب كما هو معروفا عقوبة له، لأن
كان بأمر بالمعروف ونهي عن المنكر باللسان، ولا يعمل بما يقول.

قوله: «فقل نبوتك لي: أخذ شيئا من اللباس، (فخرج الآن مثلها من كل)،
هذا عقوبة لأن القول من الكذب، فإنه سنوطة أطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على
ما فعله هذا الرجل، وأنه يذهب في قبره بسبب هذا الفعل، ولذلك قال: «أف
لك» - كلمة تفصح - بسبب التوبة التي أخذها، فدل على أن الله يجازي على
الأعمال البينة.

وقوله: «كانوا يكرهون الشاير بالله وينسون أنفسهم» فيه دليل على أنه
لا بد من العمل، ولا يكفي القول بغير عمل.

وقوله: «كنم أظفار من تخامى يجرسون بها وجوههم وصدورهم» هذه
عقوبات مرتبة على ما فعلوا من العاصي، ما تفحصهم حسن الظن بالله مع
المبارزة بالثوب والعاصي.

وقوله: «ما ضحك مثل خلقك الناس» هذا ميكائيل عليه السلام من سادات
الملائكة ويخاف من النار، مع تقواه وطاعته لله عز وجل.

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ بَصُرَ بِجَمَاعَةٍ، فَقَالَ: «عَلَامَ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ؟» قِيلَ: عَلَى قَبْرِ يَحْيَى بْنِ قَيْسٍ، فَقَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَكَرَ بَيْنَ يَدَيْ أَصْحَابِهِ مُسْرِعًا، حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْقَبْرِ، فَبَعَثَنَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَاسْتَقْبَلْتُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِأَنْظُرَ مَا يَصْنَعُ، فَبَكَى حَتَّى بَلَ الثَّرَى مِنْ دُمُوعِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «أَيُّ إِخْوَانِي، لِيْشَلْ هَذَا الْيَوْمَ فَأَعِدُوا»^(١).

وَفِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ بُرَيْدَةَ قَالَ: خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَتَأَدَّى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَتَذَرُونَ مَا مَتَلَى وَمَتَلَكُمْ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ: «إِنَّمَا مَتَلَى وَمَتَلَكُمْ مَثَلُ قَوْمٍ خَافُوا عَدُوًّا يَأْتِيهِمْ، فَبَعَثُوا رَجُلًا يَرَاهُ هُمْ، فَأَبْصَرَ الْعَدُوَّ، فَأَقْبَلَ لِيُنْذِرَهُمْ، وَخَشِيَ أَنْ يُدْرِكَهُ الْعَدُوُّ قَبْلَ أَنْ يُنْذِرَ قَوْمَهُ، فَأَهْوَى بِقَوْيِهِ: أَيُّهَا النَّاسُ أُرَيْسْتُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ أُرَيْسْتُمْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»^(٢).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ مَا أَسْكَرَ حَرَامٌ، وَإِنْ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَقْدًا لِمَنْ شَرِبَ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طَبِئَةِ الْحَقْبَالِ، قِيلَ: وَمَا طَبِئَةُ الْحَقْبَالِ؟ قَالَ: «عَرُوقُ أَهْلِ النَّارِ، أَوْ عُصَاةُ أَهْلِ النَّارِ»^(٣).

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطْلُبُ السَّمَاءَ وَحَتَّى لَهَا أَنْ تَنْطَلِقَ، مَا

(١) أخرجه أحمد (٢٩٤/٤)، وابن ماجه (٤١٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣٤٨/٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٠٢).

أَنَّهُ تَشْرَعُ الْمَوْعِظَةُ عِنْدَ الدَّفْنِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ إِذَا حَصَلَ فَرَسَةٌ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا وَعَظَهُمْ لَمَّا كَانَ يَنْتَظِرُ أَنْ يَتَهَوَّأَ مِنْ تَجْهِيزِ الْقَبْرِ، أَمَّا إِذَا جَاؤُوا وَالْقَبْرَ مَجْزُوعًا، فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ بِدَفْنِ الْمَيِّتِ وَلَا يَجْلِسُونَ.

فَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلًا عَلَى الْمَوْعِظَةِ عِنْدَ الْقَبْرِ دَائِمًا، وَيُخْطَبُونَ فِي الْمَقَابِرِ، هَذَا بَدْعَةٌ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا كَانَ يَعْمَلُ هَذَا دَائِمًا، وَإِنَّمَا عَمَلُهُ لِسَبَبٍ، وَهُوَ: أَنَّ الْقَبْرَ لَمْ يَنْتَهَ، فَإِذَا حَصَلَ مِثْلُ هَذَا فَلَا بَأْسَ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: إِبْرَاهِيمُ نَعِيمُ الْقَبْرِ وَعَذَابُ الْقَبْرِ، وَفِيهِ أَنْ ذَلِكَ لِأَسْبَابٍ، فَالنَّعِيمُ سَبَبُهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَالْعَذَابُ سَبَبُهُ الْعَمَلُ السَّيِّئُ، وَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ إِبْرَادِ الْحَدِيثِ.

الشرح:

في هذه الأحاديث دليل على مشروعية زيارة القبور والنظر فيها، من أجل ترويق القلوب، والتوبة إلى الله عز وجل.

وقوله: (وَلَا عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَقْدًا لِمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْحَقْبَالِ)؛ عقوبة له على شرب الخمر والعباد بالله، فإن الله يسقيه من عصارة أهل النار أو طينة أهل النار، كما شرب الخمر في الدنيا.

وفي هذا دليل على العقوبات على المعاصي، وأن الإنسان لا يعتمد على الرجاء، ويطمع في رحمة الله، وهو مقيم على المعاصي.

وقوله: (لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَهْلَكُمْ، لَصَبَحْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)، هذا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخوف أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهم أفضل الأمة وأكثرها أعمالاً صالحة، ومع هذا يخافون هذا الخوف الشديد، فدل على أن الاعتماد على الرجاء من غير عمل أنه باطل.

وقوله: (لَقَدْ تَضَائِقَ عَلَى هَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ قَبْرُهُ حَتَّى فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ)، فيه أن ضغطة القبر لا ينجو منها أحد، لكن المؤمن يفرج الله عنه، وأما غير المؤمن فيضيق الله عليه حتى تختلف أضلعه.

(١) أخرجه البخاري (١٣١٤).

فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك ساجد، لو تعلمون ما أعلم، لصبحتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تُلذذتم بالنساء على الفُرْس، ولحقرتنم إلى الصُّعَدَاتِ تَخَامُونَ إلى الله عز وجل^(١). قَالَ أَبُو دَرٍّ: وَاللَّهِ لَوِ دِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعَصَّدُ.

وفي السند أيضاً من حديث حذيفة، قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَنَازَةٍ، فَلَمَّا اتَّهَيْتُمَا إِلَى الْقَبْرِ قَعَدَ عَلَى سَاقَيْهِ، فَجَعَلَ يُرَدِّدُ بَصَرَهُ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «يُضْغَطُ الْمُؤْمِنُ فِيهِ ضَغْطَةُ تَرْوُلٍ مِنْهَا حَمَالُهُ، وَمِنْهَا عَلَى الْكَافِرِ نَارًا»^(٢). وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وفي السند أيضاً من حديث جابر، قال: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ حِينَ تُوُفِّيَ، فَلَمَّا صَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَوَضَعَ فِي قَبْرِهِ، وَسُويَ عَلَيْهِ، سَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَبَّحْنَا طَوِيلًا، ثُمَّ كَبَّرَ، فَكَبَّرْنَا، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ سَبَّحْتَ ثُمَّ كَبَّرْتَ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ تَضَائِقَ عَلَى هَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ قَبْرُهُ حَتَّى فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ»^(٣).

وفي صحيح البخاري من حديث أبي سعيد، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا وَضِعَتِ الْجَنَازَةُ، وَاخْتَمَلَهَا الرَّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدُمُونِي قَدُمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا، أَيْنَ تَذْمُونَنِي؟» يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا

(١) أخرجه أحمد (١٧٣/٥)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤٠٧/٥).

(٣) أخرجه أحمد (٣٦٠/٣).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ مُدْمِنًا لِلخَمْرِ سَقَاهُ اللَّهُ مِنْ نَهْرِ الْعُرْطَةِ، وَمِنْ نَهْرِ الْعُرْطَةِ؟ قَالَ: «نَهْرٌ يُجْرِي مِنْ فُرُوجِ الْمُوسِمَاتِ، يُؤْذِي أَهْلَ النَّارِ رِجْلُ قُورَيْشٍ»^(١).

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرَصَاتٍ، فَأَمَّا عَرَصَتَانِ فَجِدَالٌ وَمَعَارِزٌ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَخْلِفُ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي، فَأَخِذْ بِيَمِينِهِ، أَوْ آخِذْ بِشِمَالِهِ»^(٢).

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحْتَرَاتِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يَمْلِكَنَّ، وَتَضْرِبَ كَهَنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَثَلًا: «كَثَلُ قَوْمٍ تَزَلُّ أَرْصَ قَدَاةٍ، فَخَصَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُورِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُورِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا وَأَجْعُوا نَارًا، وَأَنْصَبُوا مَا قَلَدُوا فِيهَا»^(٣).

الشرح:

قوله: (جِيءَ بِالْمَوْتِ) ليس هو بملك الموت، إنما الموت، وهو معنى من المعاني، لكن الله عز وجل يجعله جسمًا يوم القيامة، فيذبح على مرأى من أهل الجنة، ومرأى من أهل النار، فأهل الجنة يفرحون أنهم لا يموتون وأنهم في نعيم، وأهل النار يحزنون؛ لأنهم يخلدون في النار، ولا تخرج لهم منها، يتمنون

- (١) أخرجه أحمد (٣٩٩/٤)، والحاكم (١٦٣/٤).
- (٢) أخرجه أحمد (٤١٤/٤)، وابن ماجه (٤٢٧٧/٤).
- (٣) أخرجه أحمد (٤٠٢/١)، والطبراني في الكبير (١٠٥٠٠).

وَفِيهَا أَيْضًا عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَبِأَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ، جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُوَقَّفَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُنْزِلُ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَخْلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَأَهْلَ النَّارِ مَخْلُودٌ فَلَا مَوْتَ، فَيَزِيدُ

يُنْزِلُ شَيْئًا: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ مَخْلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَزِيدُ أَهْلَ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ»^(١).
وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْهُ قَالَ: «مَنْ اشْتَرَى ثَوْبًا بِعَشْرَةِ دَرَاهِمٍ فِيهَا دِرْهَمٌ حَرَامٌ وَلَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ لَهُ صَلَاةً مَا دَامَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَذْخَلَ إِبْصَعَهُ فِي أُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «صُمْنَا إِنْ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ لَهُ صَلَاةً مَا دَامَ عَلَيْهِ»^(٢).

ثُمَّ أَكْبَرُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ وَفِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ مَشْرًا مَرَّةً وَاحِدَةً فَكَأَنَّمَا كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا فَسَلَبَهَا، وَمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ مَشْرًا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ طِينَةَ الْحَبَالِ»، قِيلَ: وَمَا طِينَةُ الْحَبَالِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «عَصَا أَهْلِ جَهَنَّمَ»^(٣).

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ مَرْثُوعًا: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ شَرْبَةً لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ لَهُ صَلَاةً أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَادَ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ لَهُ صَلَاةً أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَلَا أَذْرَى فِي الثَّالِثَةِ أَوْ فِي الرَّابِعَةِ قَالَ: «إِنْ عَادَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ زُفَّةِ الْحَبَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٤).

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ

- (١) أخرجه البخاري (٦٥٤٨)، ومسلم (٢٨٥٠).
- (٢) أخرجه أحمد (٩٨/٢).
- (٣) أخرجه أحمد (١٧٨/١)، والحاكم (١٦٢/٤)، والبيهقي في الكبير (٢٨٧/٨).
- (٤) أخرجه أحمد (١٧٦/١)، وابن ماجه (٣٣٧٧).

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُضْرَبُ الْجَسَدُ عَلَى جَهَنَّمَ، فَكَأَنَّهُ أُورِلَ مِنْ نُجَيْزٍ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يُؤْتَى: اللَّهُمَّ سَلِّمْ وَسَلِّمْ، وَخَافَتُهُ كَالْأَلْيَبِ مِثْلَ سُورَةِ السَّعْدَانِ، تَخَفْتُ النَّاسَ بِأَعْيُنِهِمْ، فَمِنْهُمْ الْمُؤْمِنُ يَحْتَلِبُهُ، وَمِنْهُمْ الْمُخْرَجُ، ثُمَّ يَنْجُو، حَتَّى إِذَا قَرَعَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ النَّارِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُزَحِّمَ مِنْ كَانَ يُسْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوهُمْ، فَيَعْرِفُوهُمْ بِعَلَانَةِ آثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ بَنِي آدَمَ أَكْثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرِجُوهُمْ قَدْ انْتَحَسُوا، فَيَضَبُّ عَلَيْهِمْ مِنْ مَاءٍ يُقَالُ لَهُ: مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَسْتَوُونَ تَبَاتِ الْحَيَاةِ فِي حِمْلِ السَّيْلِ» (١).

وفي صحيح مسلم عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى فِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَفَهُ نِعْمُهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى قُتِلْتُ، قَالَ: كَذَبْتُ، وَلَكِنْ قَاتَلْتُ لِقَالَ: هُوَ جَرِيٌّ، فَقَدْ قِيلَ: ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُجِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَفَهُ نِعْمُهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ فِيكَ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، فَقَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِقَالَ: هُوَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ: ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُجِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الثَّامِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَفَهُ نِعْمُهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ فَقَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢).

الموت: «وَأَذَانُ تَكْلِيكَ لِيَقْبُضَ عَلَيْكَ رَيْثُكَ» [الزخرف: ٧٧]، ينعنون الموت في النار ليستريحوا، لكنهم لا حاصل لهم موت: «إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُخِيراً» قَائِلًا لَهُ: جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى» [طه: ٧٤].

وقوله: (مَنْ اسْتَرَى نَفْسًا بِعَشْرَةِ دَرَاهِمَ فِيهَا دِرْهَمٌ حَرَامٌ أَوْ يَقْبَلُ اللَّهُ لَهُ صَلَاةً مَا دَامَ عَلَيْهِ)، فيه رد على الذين يقولون: إذا صار في المكاسب شيء يسير من الحرام، فلا يضرب، وإذا صار في الشرية بعض الربا فلا يضرب؛ لأنه يسير ويستترك فيها. وهذه عشرة دراهم واحد منها حرام لم يقبل الله منه صلاة، وهذا عيب شديد يدل على أن الحرام ولو قل فخطره عظيم، فيجب تجنب

الحرام نهائياً وعدم التساهل فيه.

وبعض الناس إذا قيل لهم: هذه الشرعات تتعامل بالربا، يقولون: تعاملهم بالربا خفيف، يعني: أكثر تعاملاتهم بالحلال وفيها ربا قليل، فيكون الربا مغتفر بزعمهم، وفي هذا الحديث عشرة دراهم كلها حلال إلا واحد، فكان سبباً أن لا يقبل الله من صاحبه صلاته ما دام الثوب عليه، فأين الذين يتساهلون في الحرام ويقولون: لا ضرر إذا كان الحرام يسيراً.

وقوله: (مَنْ يُخْرِجُ مِنْ مُرُوجِ الْمُرْسَاتِ) يعني: الزانيات والعياذ بالله. وقوله: (فَلَمَنْ يَتَّبِعْ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يَهْلِكَهُ)، يعني: تجتمع المعاصي ولو كانت صفات، فتصير كباثر وتهلك صاحبها.

وغرض المصنف رحمه الله من إيراد هذه الأحاديث الرد على الذين يتساهلون في المعاصي، ويقولون: إن الله غفور رحيم، ويتركون التوبة، ويعتمدون على رحمة الله وعلى عفو الله، ولا يتوبون من الذنوب.

ثم حكى ابن القيم عن شيخه - شيخ الإسلام ابن تيمية - أنه كان يقول:
إن أفضل الناس الأنبياء، وشر الناس من تشبه بالأنبياء وهو ليس منهم،
فليست العبرة بصورة الأعمال، فالتشبه بالأنبياء طيب في أصله، ولكن نظراً
لقصده صاحبه صار من شر الناس، مع أن ما عمله من خير الأعمال لو صدق
فيه. كذلك من باب أولى بعد الأنبياء: الصديقون ثم الشهداء، وأولئك خير
الناس بعد الأنبياء، وشر الناس من تشبه بهم وهو ليس منهم، وإنما يقصد
الرياء.

فِيهَا آيَةٌ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَعَلْتَ لِيَمَانَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أَمَرَ بِهِ،
فَصَبَّ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى انْفَجَّ فِي النَّارِ^(١).
وَفِي لَفْظٍ: «فَهَؤُلَاءِ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسْعَرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).
وَسَيَعْبَثُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ يَقُولُ: وَكَأَنَّ خَيْرَ النَّاسِ الْأَنْبِيَاءَ، فَدَعَا
النَّاسَ مِنْ تَشَبُّهِهِمْ مِنَ الْكَذَّابِينَ، وَأَدْعَى أَنَّهُ مِنْهُمْ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ، فَخَيَّرَ النَّاسَ
بَيْنَهُمْ: الْعُلَمَاءَ وَالْمُتَّقِينَ وَالصَّالِحِينَ وَالْمُخْلِصُونَ، وَشَرَّ النَّاسِ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ،
يَوْمَهُمْ أَنَّهُ مِنْهُمْ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ.

الشرح:

قوله: (فقد انتحشوا) مع أنهم مؤمنون موحدون، احترقوا في النار
وصاروا فحشاً، فكيف بأمن العاصي ويعتمد على رحمة الله وعفوه من غير
توبة؟!

قوله: (فهؤلاء أول خلق الله تُسعر بهم النار يوم القيامة) يدل على أن
العبرة ليست بصورة العمل، وإنما العبرة بالقلادة، فهذه الأعمال الثلاثة في
صورتها هي أفضل الأعمال: الجهاد في سبيل الله، والإنفاق في سبيل الله،
وتعلم العلم والقرآن، ولكن لما كانت ذمة أصحابها غير خالصة لم تنفعهم هذه
الأعمال، فدل على أن المدار على التوبة وعلى التقصد لا على صورة العمل، ودل
على أن الرياء يحبط العمل، ولو كان هذا العمل في صورته من أكبر الأعمال.

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٨٢)، والنسائي في الكبرى (٣٩٥/١٠)، وابن حبان (١٣٥/٢).

قوله: (مَنْ أَخَذَ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ) كذلك من أنواع ظلم الناس: الغصب، وهو الاستيلاء على أموالهم قهراً بغير حق، فمن غصب أرضاً جزأه يوم القيامة أنه يطوق هذه الأرض؛ تُجعل طوقاً في عنقه من سبع أرضين سبع طبقات، يوسع عنقه ويطول حتى يتسع لهذا الطوق الذي يحمل إياه يوم القيامة.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: وَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ لِأَخِيهِ مَقْلَمَةٌ فِي مَالٍ أَوْ عِرْضٌ فَلْيَأْتِهِ، فَلْيَسْتَجْلِبْهَا مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يُؤَخَّرَ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَأُغْطِيَهَا هَذَا، وَلَا أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتٍ هَذَا فَطُرِحَ عَنْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ^(١).
وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ: مَنْ أَخَذَ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ خُسِيفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ^(٢).

الشرح:

كذلك من مبطلات الأعمال بعد الرياء والشر: فالإنسان قد يأتي بأعمال صالحة كثيرة وخالصة لوجه الله ليس فيها رياء، لكن يأخذها المظلومون ولا يبقى له شيء، فيبعد ما يخلص الإنسان نيته لله يترك ظلم الناس، وإلا فإن المظلومين يأخذون أعماله يوم القيامة في مقابل ظلمهم، لا بد من القصاص، والقصاص يوم القيامة لا يكون بالدرهم والدنانير، وإنما يكون بالأعمال.

فعلى المسلم أن يتخلص من المظالم في هذه الدنيا بأن يطلب المسامحة من المظلومين، ويعطيهم حقوقهم التي أخذها منهم؛ لأجل أن يسلم منهم في الآخرة، وتبقى له أعماله.

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥٤).

الآخرة جزء يسير من سبعين جزء، فكيف تطيق نار الآخرة؟^{١٤}

قوله: (لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَإِنْ قُلْتَ أَوْ حُرُوتٌ...) إلى آخره، كل هذه

تخديرات: أولاً: من الشرك وهو أكبر الذنوب، ثم يليه عقوق الوالدين، ثم

يليه ترك الصلاة متعمداً، فمن ترك صلاة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله، هذه

أشد عقوبة، لكن إذا تاب وحافظ على الصلاة تاب الله عليه.

وما أكثر من يتساهل بالصلاة اليوم ويتهاون بها وهو يعيش مع

المسلمين، ويتسمى باسم المسلمين، ولكن الصلاة لا قيمة لها عنده، ولا يبالي

بها، هذه خسارة عظيمة.

وهذه المعاصي من أكبر الذنوب، وما بعدها فهو دونها وهو معصية،

فلا يتساهل الإنسان بالمعاصي عموماً كبيرها وصغيرها؛ لأن صغار المعاصي

تجر إلى كبارها، وصغار المعاصي تجتمع وتشكل خطراً عظيماً إذا تساهل

الإنسان بها.

وفي الصحيحين عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَأْرُكُم هَٰذِهِ

الَّتِي يُؤْدُّ بِكُمْ أَكْثَرُ جُزْءٍ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ»، قَالُوا: وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ

لَكَافِيَةً، قَالَ: «وَأَنَا قَدْ فَضَّلْتُ عَلَيْهَا يَسْبَعُونَ وَسَبْعِينَ جُزْءًا كُلِّهَا» (١).

وفي الحديث عن معاذ قال: أَوْصَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

«لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَإِنْ قُلْتَ أَوْ حُرُوتٌ، وَلَا تَعْتَقِ وَالِدَيْكَ، وَإِنْ أَمَرَكَ أَنْ

تُخْرَجَ مِنْ أَمْلِكَ وَمَالِكَ، وَلَا تُزَكِّ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا، فَإِنْ مَنَ تَرَكَ صَلَاةً

مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَ مِنْ ذِمَّةِ اللَّهِ، وَلَا تُشْرِكْ خَيْرًا، فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ فَاحِشَةٍ،

وَأَمَّاكَ وَالنَّفْسَ، فَإِنَّ الْغَضَبَ يُحِلُّ سَخَطَ اللَّهِ»^(٢).

الشرح:

هذا يدل على شدة حر النار يوم القيامة، فهذه نار الدنيا لا أحد يطيقها مع

أنها أخف بكثير من نار الآخرة، فهي جزء واحد من سبعين جزءاً، وفضلت

عليها نار جهنم بسبع وستين مرة، فإذا كنا لا تطيق نار الدنيا فكيف تطيق نار

الآخرة؟! ﴿قُلْ نَارِ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١]، فعلى

المسلم أن يتذكر هذا، ﴿أَوْفَيْتُمْ آلَافَاقَ الْبُحْرِ شَوْرًا﴾ أي: توقدون ﴿عَادِثُمْ

أَنْفُسَهُمْ شَجَرَةً﴾ أم غُلَّ النَّبِيُّونَ، ففريقها عيرة أنها تذكر بنار جهنم ﴿غُلَّ

جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَتَفْتَحًا لِلْمُفْسِدِينَ﴾ [الزَّحٰف: ٧١ - ٧٣]، جعلناها تذكراً فذكر

بنار الآخرة، فإذا كنت لا تطيق أن تقرب من نار الدنيا مع أنها بالنسبة لنار

(١) أخرجه البخاري (٣٢١٥)، ومسلم (٢٨٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٨٨).

ورحمته، وتنسى غضبه وتنسى عقابه.

قوله: (فَإِنَّهُ قَطَعَ الْبِدَّ فِي ثَلَاثَةِ دَرَاهِمٍ) قطع البد، وهي عضو من الإنسان وفيها نصف الدية، تُقطع في ثلاثة دراهم، وهي: ثلاثة أرباع ريال من درهما اليوم، فإذا كانت يد الإنسان تُقطع في عقوبة على ذنب في نظر الناس أنه يسير في الدنيا، فكيف بالعقوبة في الآخرة؟! لا شك أن العقوبة في الآخرة أشد على الذي عنده شرك أو كفر أو نفاق، أو عنده ظلم للناس ونحو ذلك، فإذا كانت تقطع يده في الدنيا بجريمة صغيرة في أعين الناس، فكيف يعجزها من الذنوب؟! ولهذا لم اعترض المعري المحدث فقال^(١):

يَبْدُ بِخُمْسٍ وَبِثَنٍ عَسَجِدٍ قُدَيْتَ مَا بَاتُهَا تُطْعَمُ فِي رُبْعِ دِينَارٍ
يعني: أن ديتها نصف الدية - خمسة دينار من الذهب - لو اعتدي عليها، فكيف تُقطع في ثلاثة دراهم؟ وهي: ربع دينار كما في الحديث.

فأجابهم علماء السنة، وقالوا^(٢):

عِزُّ الْأَمَانَةِ أَغْلَاهَا وَأَرْحَصُهَا دَلَّ الْحَيَاةَ فَإِنَّهُمْ جُكِّمَةُ الْبَارِي
لما كانت اليد أمانة كانت ثمينته، ولم خانت هانت، فالإنسان يهون عند الله بالذنوب والمعاصي، ويعظم عند الله بالطاعات.

قوله: (وَجَلَدَ الْحَدَّ فِي مِثْلِ رَأْسِ الْإِثْرَةِ مِنَ الْحُمْرِ) كذلك الإنسان يجلد ثلثين جلدة إذا شرب جرعة واحدة من الخمر، فكيف بأمن من عذاب الآخرة الذي هو أشد؟

(١) يُنظر: الترويضات لأبي العلاء المعري (٣٩٩/١).

(٢) البيت للشافعي عبد الوهاب بن علي بن نصر الهالكلي. يُنظر: معني الصحاح (٤١٥/٥).

وَالْأَخَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ أَضْعَافُ أَضْعَافٍ مَا ذَكَرْنَا، فَلَا يَبْغِي لِمَنْ نَصَحَ نَفْسَهُ أَنْ يَتَعَامَى عَنْهَا، وَيُرْسِلَ نَفْسَهُ فِي الْمَعَاصِي، وَيَتَعَلَّقَ بِجَبَلِ الرَّجَاءِ وَخُسْنِ الظَّنِّ.

قَالَ أَبُو الرَّقَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ: اخْذَرُهُ وَلَا تَفْتَرِّ بِهِ، فَإِنَّهُ قَطَعَ الْبِدَّ فِي ثَلَاثَةِ دَرَاهِمٍ^(١)، وَجَلَدَ الْحَدَّ فِي مِثْلِ رَأْسِ الْإِثْرَةِ مِنَ الْحُمْرِ^(٢)، وَقَدْ دَخَلَتْ الْمُرَاةُ النَّارَ فِي هَوْرَةٍ^(٣)، وَاسْتَمَلَّتِ السُّنَّةُ نَارًا عَلَى مَنْ عَلَّمَهَا وَقَدْ قُتِلَ شَهِيدًا^(٤).

الشرح:

في هذا رد على المرجئة الذين يتعلقون بحسن الرجاء ولا يسألون بالمعاصي، والرجاء الذي ليس معه عمل رجاء مذموم، وإنما الرجاء المحمود هو الرجاء الذي يكون معه عمل وترك للمحارم، كما أن الخوف المحمود الذي لا يكون معه قنوط من رحمة الله عز وجل.

قوله: (اخْذَرُهُ وَلَا تَفْتَرِّ بِهِ) أي: احذر الله جل وعلاه ولا تغتر بعفوه

(١) قال الشافعي رحمه الله: «لَا تَقْطَعُ يَدَ الشَّارِبِ إِلَّا فِي رُبْعِ دِينَارٍ قَسَاصًا»، أخرجه البخاري (١٧٨٨).

(٢) كما في حديث جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ أَسْكَرَ كَثِيرَةً، قَلِيلُهُ حَرَامٌ»، أخرجه أبو داود (٣٦٨١)، والترمذي (١٨٦٥)، وابن ماجه (٣٣٩٣)، وأحمد (٣٤٣/٣).

(٣) كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «عَلَيْتُ الْمُرَاةَ فِي هَوْرَةٍ سَجَّيْتُهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلْتُ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْمَتُهَا وَاسْتَقَمَّتْ إِذْ حَبَسْتُهَا، وَلَا هِيَ تَزَكَّتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَائِصِ الْأَرْضِ»، أخرجه البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢) واللفظ له.

(٤) سيأتي تخريجه قريباً.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مِسْرَةَ، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ يَرْفَعُهُ، قَالَ: «دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ فِي دُبَابٍ، وَدَخَلَ رَجُلٌ النَّارَ فِي دُبَابٍ»، قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنْمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يَقْرُبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قُرْبٌ، فَقَالَ لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ، قَالُوا اقْرُبْ وَكُنْ دُبَابًا، فَقَرَّبَ دُبَابًا، فَمَخَلُوا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ، وَقَالُوا لِأُخْرَى: قُرْبٌ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَقْرُبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَرَّبُوا عَنْقَهُ، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ يَتَكَلَّمُ بِهَا الْعَبْدُ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَوْ يَبْعُدُ مَا بَيْنَ الشَّرِّ وَالْغُرْبِ.

الشرح:

قوله: (دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ فِي دُبَابٍ) يعني: بسبب ذباب، (وَدَخَلَ رَجُلٌ النَّارَ فِي دُبَابٍ) يعني: بسبب ذباب، فالذي دخل الجنة لما طلبوا منه أن يذبح للصنم أبي، قالوا له: (قُرْبٌ وَكُنْ دُبَابًا)، قال: (مَا كُنْتُ لِأَقْرُبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)، فدخل الجنة، أما الثاني فتساهل وقال: الذباب سهل، فقربه للصنم، فدخل النار؛ لأن هذا شرك، والشرك لا يُغفر منه شيء حتى يتوب منه صاحبه، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، ولو كان قليلاً، فكان الذباب شيئاً سهلاً في نظره، ومع هذا كان جزاءه النار والعباد

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٨٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٤٧٣/٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٧/٩).

وقوله: (وَقَدْ دَخَلَتِ الْمَرْأَةُ النَّارَ فِي هَرُونَ) مع أن المرأة عند الناس ليس لها قيمة ولا لها حرمة، حبستها ومنعت عنها الطعام والشراب حتى ماتت، فدخلت النار، بينما دخلت امرأة بغية الجنة في كلب وجدته يلهث من شدة العطش فسقت، وهو كلب ليس عند الناس بشيء، فغفر الله لها جرورها العظيم - وهو الزنا - ودخلت الجنة^(١).

فلا يُيْهَـأُونُ بِالْأَعْمَالِ بِالْحَسَنَاتِ وَيُقَالُ: هَذِهِ سَهْلَةٌ وَلَا تَسَاوِي شَيْئًا، وَلَا يُيْهَـأُونُ بِالسَّيِّئَاتِ وَيُقَالُ: هَذِهِ لَيْسَتْ بِشَيْءٍ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَحْتَرُونَ مِنَ الْمُعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنَّ تَلَقَّى أَحَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ»^(٢). فلا تحقرن من المعروف شيئاً، ولا تحقرن من الذنوب شيئاً.

قوله: (وَأَشْتَمَلَتِ السَّمَلَةُ نَارًا عَلَى مَنْ غَلَّهَا وَقَدْ قُتِلَ شَهِيدًا)، رجل قاتل في سبيل الله على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى قُتِلَ، فغبطه الصحابة وقالوا: «هَيْئَتُهَا الشَّهَادَةُ»، لأنه في نظرهم وفيما يظهر لهم شهيد قتل في سبيل الله، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَلَّا» يعني: ليس في الجنة «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ السَّمَلَةُ الَّتِي أَخَذَكُمْ يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغَانِمِ، لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ، لَكُنْتُمْ تَعْمَلُ عَلَيْهَا نَارًا»^(٣)، والسَّمَلَةُ: نوع من الكساء يلتف به، أخذها من الغنائم بدون قسمة، فالتفت عليه نارا، مع أن ظاهر عمله أنه شهيد.

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «غُفِرَ لِامْرَأَةٍ مُوسِيَّةٍ، مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَجُلٍ يَلْهَثُ، كَادَتْ تَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، فَتَرَعَتْ حُثَّتُهَا، فَأَوْقَفَتْهُ بِخَارِهَا، فَتَرَعَتْ لَهُ مِنَ الْهَمِّ فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ». أخرجه البخاري (٣٣٢١) واللفظ له، ومسلم (٢٢٤٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٦) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٠٧)، ومسلم (١١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَرَبَّمَا أَتَكَلَّ بِبَعْضِ الْمُعْتَرِينَ عَلَى مَا بَرَى مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَأَكْبَرَهُ لَا يُعْتَبَرُ مَا بِهِ، وَيُظَنُّ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ حُبِّهِ اللَّهِ لَهُ، وَأَنَّهُ يُعْطِيهِ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَهَذَا مِنْ الْغُرُورِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا رُسَيْدُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ حَزْمَةَ بِنْتِ عِمْرَانَ التَّجِيبِي، عَنْ عُنْبَةَ بِنْتِ مُسْلِمٍ، عَنْ عُنْبَةَ بِنْتِ عَامِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَنَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّهُ هُوَ اسْتِزْجَاجٌ». ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ، فَتَخَنَّا عَلَيْهِمْ أَنْتَوْبَ كُلِّ شَيْءٍ حَقٌّ إِذَا فَرَحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْضَةً لِمَا لَهُمْ مِنْ بَلْسُونٍ» [الأنعام: ٤٤].^(١)

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعْمَهُ وَأَنَّكَ مُؤَبِّمٌ عَلَى مَنَاصِيهِ فَأَخَذَهُ؛ فَإِنَّهُ هُوَ اسْتِزْجَاجٌ مِنْهُ يَسْتِزْجِرُكَ بِهِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَفَعَلْنَا لَبِئْسَ يَكْفُرُ الْبَاطِلُ لِيُؤْتِيَهُمْ مَغْفِرَةً مِنْ فَضْلِهِ وَتَعَارِجَ عَلَيْهَا يَتَطَهَّرُونَ ۝ وَلِيُؤْتِيَهُمْ أَنْبَاءً وَسُورًا عَلَيْهَا يُتَنَكَّبُونَ ۝ وَذُرُوعًا وَنَارًا كُلَّ ذَلِكَ لَكَا مَنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

وَقَدْ رَدَّ سُبْحَانَهُ عَلَى مَنْ يَظُنُّ هَذَا الظَّنَّ يَقُولِي: «فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَدَأَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيُفْسِدُ وَرَبِّهِ أَكْرَمَنِ ۝ وَإِنَّا إِذَا مَا ابْتَدَأْنَاهُ فَقَدَرْنَا رَزْقَهُ فَسَقُولُ رَبِّي أَهَدَنِ ۝ كَلَّا ۝ [التجوير: ١٥ - ١٧]. أَيُّ: لَيْسَ كُلُّ مَنْ نَعَّمَهُ وَوَسَّعَتْ عَلَيْهِ رِزْقَهُ أَلَمْ يَكُنْ قَدْ أَكْرَمَهُ، وَلَا كُلُّ مَنْ ابْتَدَأْتَهُ وَصَبَّغْتَ

(١) أخرجه أحمد (١٤٥/٤).

بِأَلَمِهِ، وَلَوْ اسْتَمْتَعَ مِنْ تَقْدِيرِهِ قُرْبَانًا لَعَبَّرَ اللَّهُ لِدُخْلِ الْجَنَّةِ، فَكَيْفَ بِالَّذِي يَذْرِجُ الْمَائَاتِ مِنَ الْغَنَمِ وَالْأَنْعَامِ لِلْقُبُورِ وَالْأَصْنَامِ وَالْعِبَادِ بِاللَّهِ؟!

فَيُبَيِّنُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْعَبْرَةَ لَيْسَتْ بِصُورَةِ الْمَذْبُوحِ، وَإِنَّمَا الْعَبْرَةُ بِالْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ، فَمَنْ تَسَاهَلَ فِي الذَّبْحِ لغيرِ اللَّهِ هلكَ والعبادة بالله. أما الآخر الذي قال: «مَا كُنْتُ لِأَقْرَبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا مِنْ دُونِ اللَّهِ»، وَلَوْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا، فَعِظَمَ الشَّرْكَ، وَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ عَاقِبَتِهِ، وَجَعَلَ نَفْسَهُ فِدَاءً لِعَقِيدَتِهِ، فَتَقَطَّلَ، وَصَارَ شَهِيدًا، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ.

قوله: «وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ يَتَكَلَّمُ بِهَا الْعَبْدُ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ»، كَالَّذِي قَالَ: «وَاللَّهُ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ»، فَقَالَ اللَّهُ شَيْئًا وَتَعَالَى: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَجْبَطْتُ عَمَلَكَ»^(١). قَالَ كَلِمَةً وَاحِدَةً أَجْبَطَتْ أَعْمَالَهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الْعَبْدَ كَيْتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ، مَا يَتَّبِعُ مَا فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا يَتَّبِعُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ»^(٢)، كَلِمَةً وَاحِدَةً كَانَتْ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، فَكَيْفَ بِالَّذِي أَكْثَرَ كَلَامَهُ أَوْ كُلَّ كَلَامِهِ فِي سَخَطِ اللَّهِ.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢١) من حديث جندب بن عبد الله.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فهو سبحانه وتعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، أما الآخرة فلا يعطيها إلا من يحب، فلا يغتر الإنسان بحاله في الدنيا والنعيم الذي هو فيه في الدنيا، ويظن أن الله سيكرمه في الآخرة، بدون عمل وبدون تقوى وبدون طاعة؛ لأن النجاة والإكرام في الآخرة لا تحصل إلا لأهل العمل الصالح: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالْبَاقِي تَقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن عَمِلَ تَقْوَىًٰ وَجَعَلَ صَاحِبًا﴾ [سبا: ٣٧].

فإذا رأيت الدنيا في يد من لا يخاف الله عز وجل فاعلم أنه استدراج، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَسَاءَلُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَجَنَّبَا عَنْهُمْ أَتَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وأما إذا كانت مع الطاعة والعبادة فهذه إعانة من الله سبحانه وتعالى.

فليست العبرة بما في يد الإنسان من الغنى والثروة، وإنما العبرة بحاله مع الله جل وعلا، فإن كان عاصياً لله فهذا استدراج له، وإن كان مطيعاً لله فهذه نعمة وإعانة من الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿وَتَعَالَىٰ جَلَّ وَعَلَىٰ﴾. ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَآكْفَلٌ﴾، ﴿فَأَكْفَرْتُمْ وَتَنَعَّمْتُمْ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْفَرٌ مِّنِّي﴾. يظن أن هذا لكرامته على الله ويعتبر، ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ يعني: ضيقه وأفقره ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهْلَكَ بَنِيَ﴾، يظن أن هذا إهانة من الله، مع أنه من مصلحته، وليس بإهانة كرامة.

فهذا أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم كان يربط الحجر على بطنه من

عليه رزقه أكثر من أن يحتمل هذا بالنعمة، وأكرم هذا بالإيتلاء. وفي جامع الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ» (١).

وقال بعض السلف: «رُبَّ مُسْتَرْجِعٍ بَيْنَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، وَرُبَّ مُعْزٍ بَيْنَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، وَرُبَّ مُتَوَكِّلٍ بَيْنَهُمُ النَّاسُ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ».

الشرح:

قوله: ﴿وَرُبَّمَا أَتَكَلَّ بَعْضُ الْمُتَكِلِّينَ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا﴾، كالذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعْتَدِينَ﴾ [سبا: ٣٥]، وصاحب الجنتين الذي قال: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ قَبِيضَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥]، فأغتر بما عنده في الدنيا، وظن أنه إذا كان هذا عطاء الله له في الدنيا ففي الآخرة سيعطيه أكثر.

وهذا غرور - والعباد بالله - فقد يعطي الله الدنيا للكافر والمشرك؛ لأنها لا تساوي عند الله شيئاً، ولكن كاتب الدنيا تعبد عند الله جناح بعوضة ما سقى كافوراً منها شربة ماء (٢).

(١) أخرجه أحمد (٣٨٧/١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٣١/١)، والحاكم (٤٨٥/٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ولم ألق عليه في الطبرق من سنن الترمذي.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠)، والطبراني في الكبير (٥٨٤٠)، والبيهقي في شعب الإيجان (٧٩/١٢) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.